

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف رنسيان

RUNCIMAN : *A History of the Crusades*

(Cambridge University Press, 1951)

هذا هو الجزء الأول من تأليف كبير فى موضوع ضخم ، وهو الحروب الصليبية ، ويبدو واضحاً من قراءة هذا الجزء أن الأستاذ رنسيان عكف على دراسة هذا الموضوع فى صبر علمى خارق منذ سنين ، وله عداه مؤلفات ممتازة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها .

وفى نقد الأستاذ توينبى لهذا الجزء الأول شرح لمسألتين هامتين للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى خاصة ، وللمشتغلين بالتاريخ عامة ، وهما : أولاً أن معظم مؤرخى الحروب الصليبية أوروبيون غربيون ، بدأوا حياتهم العلمية فى ميدان التاريخ الأوروبى الغربى ، واعتبروا الحروب الصليبية جزءاً من هذا الميدان ، أى أن بلاد المسيحية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) ، وبلاد المسلمين كذلك ، ليست سوى مسرح لأعمال الصليبيين ، وأن أهل هذه البلاد — مسيحيين شرقيين ومسلمين سنين وشيعة — ليسوا سوى كتل بشرية وظيفتها الانهزام والخضوع والتبعية أو الفناء أمام الحملات الصليبية . والواقع أنه منذ أيام المؤرخ فيلكن الألمانى ، والمؤرخ الفرنسى ميشو ، لم يشذ عن هذه القواعد الصليبية العامة من المؤرخين الأوروبيين الغربيين إلا القليل ، أمثال ستيفنسن وشالاندون وبرهيه ورنسيان مؤلف الكتاب موضوع هذا النقد .

أما المسألة الثانية التى شرحها توينبى ، فهى أن الموضوع التاريخى الواحد يمكن دراسته علمياً من عدة زوايا مختلفة ، فتخرج الصورة فى جميع الأحوال واحدة ، من حيث الموضوعية والسلامة التاريخية ، ولكنها تتراعى مختلفة فى عرضها لا جوهرها ، من حيث المنظور التاريخى ، وهو ما لا بد منه قطعاً ، كما تتراعى الجسيمات من القدور والآنية فوق الكراسى مختلفة المنظور والظل من

مختلف المواقف والمقاعد في حجرة الرسم .

والقارئ لهذا الكتاب لا ينبغي له أن ينتظر جديداً من الحقائق إلا في التفاصيل ، فأجيال المؤرخين الأوروبيين الغربيين لم تترك من موضوع الحروب الصليبية ناحية أو مرحلة إلا درستها أكثر من مرة . على أن هذا الكتاب بالذات يمتاز بأنواع من الجدة والابتكار ، أولها استطاعة المؤلف أن يعتمر مجهودات هذه الأجيال كلها اعتصاراً علمياً ، على اختلاف لغاتها ، وأن يخرج من هذه العملية الجهدية بمادة نهائية شاملة جامعة لتاريخ الحروب الصليبية .

واستقامت للمؤلف فرصة مزدوجة نادرة ، وهي أنه تعلم في غرب أوروبا ، وانصرف إلى دراسة التاريخ البيزنطي ، وعاش في إستانبول عيشة الباحث المنصرف إلى البحث الهادئ عدة سنين ، فاستطاع بذلك أن يطل على موضوع الحروب الصليبية من « شباك » مشرف تاريخياً وجغرافياً على الجهات الأصلية الأربع لموضوعه ، إن صح هذا التعبير هنا . ولذا جاء منهجه في الحروب الصليبية غير مسبوق إليه ، وهذا هو النوع الثاني من الجدة التي يمتاز بها هذا الكتاب ، إذ بدأه المؤلف من استيلاء المسلمين على فلسطين والشام أيام الخلفاء الراشدين ، وامتداد الدولة الإسلامية إلى معظم غرب آسيا ومصر وشمال إفريقيا ، مما غير الموازين السياسية والتوزيع الديني منتصف القرن السابع الميلادي . ثم تتبع المؤلف حوادث التصادم السياسي والحضاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية في تفصيل تاريخي محمود ، ووقف وقفة وصفية طويلة عند حركة الحجيج التي أتت بأفراد وجماعات من المسيحيين من كل فج أوروبي غربي عميق لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة بالشرق ، وللتبرك بمخلفات المسيح والقديسين بأشتات المدن الشرقية . جاء أولئك الأفراد والجماعات منذ القرن السابع الميلادي من فرنسا الميروفنجية ، وإنجلترا السكسونية ، وألمانيا الإمبراطورية ، وإيطاليا مركز البابوية الناشئة ، حتى إذا كان القرن العاشر الميلادي ازدادت هذه الحركة حتى بلغت بعض جماعات الحاج آلافاً مؤلفة من رجال ونساء وأطفال من جميع طبقات المجتمع الأوروبي الغربي ، وظلت هذه الحركة تسير سيرها الدافق إلى أغراضها التبركية وتعود إلى مستقراتها وأوطانها الأوروبية الغربية في رضى وأمن وطمأنينة ، بفضل ما ساد الدولتين الفاطمية في مصر والشام والدولة البيزنطية في البلقان وآسيا الصغرى وقيليقية من علاقات حسن الجوار والتسامح

الناشئ من مبادلة المنافع الاقتصادية .

ثم هبط السلاجقة الأتراك إلى أقاليم غرب آسيا ، وأعقبهم أتباعهم من أصناف التركمان ، فاستولى هؤلاء وأولئك على كثير من أقاليم الدولة البيزنطية ومدنها ومعاقلها في آسيا الصغرى ، مثل قونية ودوراليوم ونيقية ، كما استولوا على كثير من أقاليم الدولة الفاطمية ومعاقلها الحصينة بالشام ، مثل حلب وحمص وحماه ودمشق وبيت المقدس . وبسبب ما طرأ على الأوضاع السياسية من تغير وقلق نتيجة انتزاع الدولة السلجوقية هذه الأجزاء الهامة من أطراف هاتين الدولتين غدا الحج المسيحي من أوروبا عبر آسيا الصغرى والشام مركباً صعباً لا لقيام الدولة السلجوقية الموحدة المهيمية المتحمسة لحرفية شرائعها الدينية ، بل لذهاب الوحدة السياسية عن هذه الدولة وتفككها واضطراب منابع السلطة والنفوذ في دويلاتها فضلاً عما طرأ على الدولة الفاطمية من تفكك من نوع آخر . ومع هذا لم ينقطع تيار الحج من أوروبا ، وفي هذا دلالة لا على دوام روح التقوى بين الناس في غرب أوروبا فحسب ، ولا على خطأ القول بأن تعصب الدولة السلجوقية الموحدة أو دويلاتها المفككة منعت الحج المسيحي إلى فلسطين منعاً باتاً ، بل على دوام إمداد المجتمع الأوربي الغربي بقصص حقيقي عن الشدائد والتضحيات التي وقعت لكثير من الحجاج المسيحيين ، وخلق في أوساطهم تفكيراً في تخليص الأماكن المسيحية المقدسة والطرق والمسالك المؤدية إليها من أيدي المسلمين .

ونوع ثالث من الجدة في هذا الكتاب : تحول المؤلف من موضوع الحج المسيحي وأثره في تطور الفكرة الصليبية إلى ميدان الحروب بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا ، وتطور الحوادث في هذا الميدان من حركة مقاومة مسيحية ضد سيادة إسلامية إلى حركة صليبية عامة ترعمتها البابوية والدبرية الكلوونية ، وأسهمت فيها جماعات كبيرة من الفروسية الأوربية ، على رأسها زعامات مشهورة من شمال إيطاليا وبرجندية وجنوب فرنسا . وتشجيعاً لهذه الحركة أفتى البابا جريجورى السابع (هلدبراند) بأن البلاد التي يستولى عليها فرسان غرب أوروبا من المسلمين حلال لهم يتملكونها وأبنائهم من بعدهم ، كما دعا البابا أربان الثانى جميع الراغبين في الحج إلى الأماكن المسيحية بالشرق أن يحجوا . حجيجاً عسكرياً بسيفهم إلى إسبانيا ، أو أن يوفر ما يتطلبه السفر

إلى فلسطين من المال لإعادة بناء المدن التي خربتها الحروب الإسبانية ضد المسلمين . (انظر ص ٩٠ - ٩٢ من الكتاب) .

يتضح من ذلك أن الحروب الصليبية بمبناها ومعناها في المصطلح التاريخي بدأت فعلاً في أوروبا قبل موعدها في كتب البعض من المؤرخين السالفين ، وأن الفروسية الأوروبية اشتركت في هذه الحروب ، وأن البابوية تزعمت الدعوة إليها قبل خطبة أربان الثاني في المجمع الديني بمدينة كليمنت بفرنسا سنة ١٠٩٧م . وهي الخطبة التي يصرّ أولئك البعض من المؤرخين وأشباههم أن يجعلوا منها سبباً وفاتحة لعصور الحروب الصليبية . والواقع أن البابا جريجورى السابع فكر تفكيراً جدياً في توسيع هذه الحروب التي أشعلتها الدول الإسبانية المسيحية واشتركت فيها الفروسية الأوروبية الغربية بنصيب متصل ، كما دعا دعاية جدية لامتداد هذه الحروب بحيث تشمل الأناضول ، وذلك بعد أن غدا تفكك الدولة السلجوقية خطراً أكبر على الحجاج المسيحيين وفرصة أعظم للنصر في آن واحد . وشجع البابا على المضي في هذا التفكير وهذه الدعاية مدة ما بدا من أمل في قبول البيزنطيين توحيد الكنيسة البابوية (الكاثوليكية) والكنيسة البيزنطية (الأرثوذكسية) تحت التاج البابوى . غير أن توحيداً لم يحدث ، وجاء البابا أربان الثاني فاهتم لهذا الأمل بالذات ، وفاوض بشأنه الإمبراطور البيزنطى الكيسوس كرمين ، واستقبل سفراءه ووعدهم بدعوة الفروسية الأوروبية الغربية إلى الدخول في جيوش الإمبراطورية البيزنطية لدفع أمراء السلاجقة عن آسيا الصغرى وغيرهم من أعداء الإمبراطورية في البلقان : وفى مقابل ذلك وعد السفراء بقيام الإمبراطور على إزالة ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من أسباب التباعد والكراهية . وبينما البابا فى طريقه من بياتشيزا بإيطاليا إلى كليمنت بفرنسا لأمر تتعلق بالتاج الفرنسى والشئون الكنسية الفرنسية نبتت في رأسه ونضجت فكرة إثارة أوروبا كلها لحرب صليبية جامعة ، ضد المسلمين في الشرق ، لا لمساعدة الدولة البيزنطية فقط . وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م خطب أربان خطبته المشهورة في مجلس كليمنت ، ولقيت دعوته إلى حرب صليبية جامعة من الحماسة أكثر مما انتظر لأنها فكرة طالما جالت برعوس زعامات سابقة ، حتى إذا انفض المجلس انتشر الأساقفة في غرب أوروبا يدعون دعوة البابا ، كما انتشر المتطوعة من الرهبان في جوف المجتمع

الأوربي يريدون خدمة هذه الدعوة ، ومن أولئك كيوكيو — أى بطرس الصغير الذى اشتهر باسم بطرس الناسك ، وغيره من الزعماء « الشعبين » الذى اجتذبهم شخصية بطرس القديسة الساحرة ، أمثال والتر الفقير وجوتشوك .

وإذا كانت أبعاض من هذه الحقائق معروفة تمام المعرفة فى مختلف المؤلفات الخاصة بالحروب الصليبية ، فالجديد هنا — وهذا هو النوع الرابع من الجدة فى هذا الكتاب — أن هذه الحقائق المبعثرة فى عدد من الكتب صارت معروضة عرضاً نهائياً فى كتاب واحد ، مع استناد المؤلف لا إلى المراجع الأصلية الغربية فحسب ، بل إلى المراجع الأصلية البيزنطية كذلك ، وهو ما يمتاز به هذا الكتاب من أوله إلى آخره . ثم إن القارئ لا يكاد يصل مع المؤلف إلى حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى آسيا الصغرى حتى يرى الحواشى مشيرة إلى مراجع تركية وأرمنية وعربية أصلية ، فضلاً عن المراجع اللاتينية واليونانية التى تقدمت الإشارة إليها ، فضلاً عن المراجع الحديثة فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية .

وتتضح الجدة فى صورة أخرى بهذا الكتاب من تتبع المؤلف أدوار الحملات الصليبية الشعبية التى سبقت الحملة المعروفة بالأولى — وهذا هو النوع الخامس من الجدة . ووصلت هذه الحملات إلى القسطنطينية بزعامة بطرس الناسك وغيره ، وأصرت على العبور إلى آسيا الصغرى استفتاحاً للحرب ضد المسلمين قبل وصول الجيوش المنظمة ، ولقيت حتفها إلا قليلاً من رجالها على يد المسلمين عند الشاطئ الأسوى لبحر مرمرة شمالى نيقية ، وبطرس الناسك غائب عنها فى القسطنطينية . على أن خاتمتها هذه لم تذهب هباء ، إذ فتحت عيون الزعماء والقادة فى الحملة الصليبية الرسمية لما سوف يلقون من المقاومة ، وما سوف يحتاجون إليه من معرفة بجغرافية آسيا الصغرى . وعاش بطرس الناسك وسار مع هذه الحملة الرسمية عبر آسيا الصغرى ، وشهد حوادث الصليبيين حول إنطاكية ، وخارت قواه واستولى عليه الخوف وفرّ هارباً من الميدان ، ثم عاد إلى الظهور مرة أخرى بعد استيلاء الصليبيين على إنطاكية ، وكفر عن خطيئته الحرب بالقيام بالسفارة بين زعماء الحملة والأنابك كربوجا أمير الموصل الذى كان أول الشخصيات الإسلامية التى وقفت للصليبيين بأطراف الشام ، وهددت زحفهم تهديداً خطيراً . (انظر صص ٢٢٣، ٢٣٦، ٢٤٦-٢٤٧ من الكتاب) .

وثمة مواضع أخرى جديدة في هذا الكتاب ، وهي النوع السادس من الجدة في تأليفه ، ومنها شرح المفاوضات التي دارت بين الصليبيين والدولة الفاطمية حول مشروع خلاصته أن يقنع الصليبيون بما يفتحونه من البلاد الشامية الشمالية ، وأن يتركوا فلسطين لتستولى عليها الخلافة الفاطمية من أيدي السلاجقة ، وأن يساعد الفريقان بعضهما بعضاً لتحقيق ذلك على حساب الأمراء السلجوقيين المسلمين (انظر ص ٢٢٩ - ٢٣٠) . ومنها كذلك عناية المؤلف بشرح أنواع المقاومة الإسلامية ومواضعها في تفصيل منذ عبر الصليبيون بجيوشهم إلى آسيا الصغرى . (انظر ص ص ١٧٥ - ١٩٤) ، ومن أنواع هذه المقاومة وأشباهها في الشام وفلسطين يتضح بعض السر في سهولة الانتصارات الصليبية .

يتبقى بعد هذا كله نوع آخر من الجدة ، وهو الملحق رقم ١ (ص ٣٢٧ - ٣٣٥) حيث تناول المؤلف مراجع الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ومؤلفيها بالنقد والتحليل على طريقة الجرح والتعديل ، ثم الملحق رقم ٢ (ص ٣٢٦ - ٣٤١) حيث حلل المؤلف أعداد الجيوش في هذه الحملة ، وبين أن هذه الجيوش التي لم تبلغ إعدادها في الواقع ما بلغت في حوليات المؤرخين المعاصرين احتوت على كثير من غير الحارين ، وأن كثيرين من قادتها جاءوا إلى الشرق بزوجاتهم وأخواتهم وأولادهم ، مما يدل على أن بعض أولئك القادة الذين أسهموا في الحروب الصليبية عامة بالمجنىء إلى الشرق لم يريدوا لأنفسهم الثواب والتقوى وحسن المآب فحسب ، بل المكافأة الدنيوية والمجد ، وحسن العقبى السياسية بالإقامة في إمارة أو مملكة شرقية بعيدة عن صخب المنافسة والتراحم والتخاصم فيما بين الملكية والإقطاعية في غرب أوروبا . على أن هذه الدعوى لا تستند إلى الاستنتاج فحسب ، بل إلى حقائق استمدتها رنسيان من مواضع أولئك القادة في أوروبا ، قبل أن يترعوا الحروب الصليبية في الشرق .

محمد مصطفى زيادة